

المحور الثاني: الممالك القديمة فى شرق إفريقيا:

المحاضرة الثانية:

مقدمة: عرفت منطقة شرق إفريقيا قيام عدة ممالك سياسية كانت أقدم مقارنة بممالك غرب ووسط إفريقيا، وهذا لتأثير الحضارات المجاورة لمنطقة شرق إفريقيا، كحضارة اليمن القديم، أو الحضارة المصرية فى الشمال، حيث تسربت معالم الحضارة إلى شرق إفريقيا عبر وادي النيل والبحر الأحمر، ما ساهم فى قيام ممالك قديمة تركت وراءها حضارة راقية جدا تنافس حضارات شمال إفريقيا وحتى حضارات أوروبا.

1- امبراطورية كوش - نباتا ومروى.

قبل أن تقوم امبراطورية كوش فى بلاد النوبة بالسودان الحالى اليوم كانت المنطقة خاضعة لنفوذ المصريين القدماء منذ 2000 سنة قبل الميلاد، وهذا لما كانت تميزه بلاد النوبة من أهمية اقتصادية جعلت منها موردا حقيقيا لاقتصادها، كما ساهم القرب الجغرافى بينهما، وكذا وجود نهر النيل كرابط بين المنطقتين فى إحكام السيطرة المصرية على بلاد النوبة لآلاف السنين، وقبل قيام امبراطورية كوش قامت فى المنطقة حضارة تعرف بمملكة كرمة 1730-1580 قبل الميلاد فى الجزء الشمالى من منعطف النيل؛ لكن المعلومات عنها قليلة جدا.

إن بداية بروز امبراطورية كوش ليست معروفة كثيرا لدى المؤرخين، ولكن ما هو متفق عليه أن الامبراطورية بدأت مع الملك "الارا" الذى خلفه "كاشتا" والذى يشتق اسمه فيما يبدو من كوش، وهذا فى حدود عام 750 ق م.

ويعتبر الملك "بعنخي" أو "بي" أشهر ملوك كوش القديمة، وعلى يديه بدأت بدأت المملكة تتوسع، وتأخذ استقلاليتها عن مصر القديمة التى كانت تحت الأسرة الخامسة والعشرين، وكان الملك "بي" رحيمًا بشعبه محبا للخيل والغزو، وهو ما سيمكنه فيما بعد من غزو مصر ويصبح بذلك أول ملك نوبى يحكم عرش مصر الفرعونية فى الأسرة الخامسة والعشرين.

ومن جهة أخرى نصبت أخته الأميرة "أميردس" نفسها كاهنة منقطة لعبادة الإله آمون، فصار بذلك إلههم الأكبر، وحسب ما عثر عليه علماء الآثار من لوائح أثرية للملك "بي" توجد اليوم بالسودان عام 1920 تصنف النظام الفدرالى لإمبراطورية كوش مع إعلان سيادة الإله آمون فمما جاء فيها "لقد منحني آمون 'نباتا' السيادة على كول الناس فمن أقول له أنت الملك يصبح ملكا.... لقد منحني آمون طيبة السيادة على مصر..... إن الآلة تتوج الملوك، كما أن الناس يتوجون الملوك، أما أنا فقد توجني آمون"

وبعد وفاة الملك بعنخي "بي" تولى الحكم أخوه "شباكا" سنة 713 ق م، وفي عهده أصبحت امبراطورية كوش تظم كل وادي النيل، وابتداء من حكم هذا الأخير بدأت تظهر نهضة عمرانية قام بتوسيعها بعده خلفاؤه ابناء "بي"، وهما 'شاباتكا' (700- 690 ق م)، وطهرقا العظيم (690- 664 ق م).

نباتا العاصمة الأولى لامبراطورية كوش:

بعد الانسحاب الكوشي من مصر تحت ضغط الأشوريين يدخل تاريخ كوش مرحلة صعبة، ويصبح تتبع سيرة الملوك مسألة شاقة، وقد استمرت المملكة حوالي ألف عام أخرى من الوجود زادت فيها الصبغة الإفريقية، وظلت محتفظة باسمها كوش، وعلى الرغم من تأثر هذه الحضارة بالحضارة المصرية فهي في الحقيقة حضارة إفريقية كانت تتفوق على نفسها تارة وتارة أخرى تحاول الارتباط بالحضارة المصرية، وكانت تصلها بين الحين والآخر تيارات ثقافية من البحر المتوسط، وبالأخص بعد تأسيس الإسكندرية.

وفي البداية ظلت العاصمة في نباتا عند سفح جبل برقل، وفي وقت لاحق حوالي القرن 6 ق م انتقلت العاصمة جنوبا إلى مروى، ولا نعرف على وجه التحديد مدى اتساع مملكة كوش.

وعلى مر عدة قرون بقيت الصبغة المصرية غالبية على الملوك ال، ائل الذين دفنوا في نوري، حيث دفنوا في مقابر تعلوها أهرامات ذات طراز مصري؛ حتى أن الزخرفات في حجرات الدفن والتوابيت المنحوتة من الغرانيت كانت تتماشى مع الأسلوب المصري.

ولم يدم قيام العاصمة نباتا تاريخ 591 ق م حتى قامت جيوش ملك مصر "أبسماتيك الثاني" الذي اعتلى العرش في 592 ق م بشن حملة عسكرية على بلاد كوش عام (591 ق م) استولت جيوشه من خلالها على العاصمة نباتا.

نقل العاصمة إلى مروى:

على اثر حملة الملك المصري "أبسماتيك الثاني" توسعت الهوة بين الشمال والجنوب فراح الكوشيون ينقلون عاصمتهم من نباتا إلى مروى التي تقع إلى الجنوب من نباتا، وعلى مسافة غير بعيدة من الجندل (الشلال) السادس، وكان "أسيلتا" أول ملك يتخذ منها عاصمة غير أن نباتا بقيت العاصمة الدينية للمملكة، وظل الملوك يدفنون في مقبرة "نوري" حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد.

وهناك تفسير آخر لنقل العاصمة إلى الجنوب يستند إلى عوامل مناخية واقتصادية، فالسهوب حول مروى أفسح منها حول نباتا التي تحاصرها الصحراء، فإلى جانب تربية المواشي قامت الزراعة، وهذا لتساقط الأمطار بها صيفا، وقد حفرت أحواض ضخمة للري

حول المواقع الرئيسية، ومن المؤكد أن التجارة كانت نشطة لأن مروى كانت تتمتع بموقع ممتاز على الطريق بين البحر الأحمر، وأعلى النيل والتشاد.

وفيما يخص ترتيب ملوك امبراطورية كوش وفترة حكم كل واحد منهم تبقى تشويها الكثير من الغموض؛ لأن الكتابات تكاد تكون غير موجودة، وما كتب فقط من الآثار المادية التي حصل عليها علماء الآثار، وعلى ضوء ذلك كان الملك "نستاسن" آخر ملك يدفن في مقبرة "نوري" 300 قبل الميلاد، ومن بعده صار الملوك والأمراء يدفنون في مقابر مروى.

وفيما يتعلق بالديانات فساكن مروى تخلو بمرور الوقت عن عبادة الإله آمون وراحوا يعبدون الإلهين "أبيدماك (الإله الأسد) والإله "سبوميكر"، وهذا يعني قطع العلاقة تماما مع مصر.

لغة مملكة مروى:

مع مجيء "شانا كدختي" 170-160 ق م يبدأ سيطرة نظام الأم، أو رئاسة الأم للأسرة، وقد عُثر في بناء فخم باسم هذه الملكة في "النقعة" على نقوش مكتوبة بالهيروغليفية المروية، وهي من ضمن أقدم ما عرف من الكتابات، والمعروف أن هذه الهيروغليفية مقتبسة من نظيرتها المصرية، ولكنها ذات مدلولات لفظية مختلفن وتكتب وتقرأ بطريقة عكسية للهيروغليفية المصرية، وقد يدل هذا على رغبة متعمدة في الاختلاف، وتكتب من اليسار إلى اليمين.

روما ومروى:

إن ارتباط مروى بالعالم الخارجي لا يظهر إلا مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبالخصوص مع الرومان، وهذا في حادثة مشهورة، فحصل وأن قام المرويين بنهب مدينة "أسوان" وسلبوا تمثال امبراطور روما "أغسطس"، ونقل إلى مروى، فقام والي مصر الرومانية آنذاك "بترونيوس" بحملة تأديبية واستولى على "نباتا" عام 23 قبل الميلاد، ووضع الرومان حامية مستديمة في "بريمس" (قصر إبريم)، والتي كان لها أثرها في صيد المرويين، وفي عام 21 قبل الميلاد أبرمت اتفاقية سلام بين الطرفين في "ساموس" حيث تصادف أن كان الامبراطور الروماني "أغسطس" يقوم آنذاك بزيارة إلى هذه الجزيرة، وعلى إثر هذه الاتفاقية انسحبت القوة الرومانية وألغيت الجزية التي فرضت على النوبيين، وجُعلت "هيراسكامنوس" كمنطقة ثابتة للحدود بين الامبراطوريتين الرومانية والمروية.

ازدهار مملكة مروى:

تعد الخمسين سنة الأخيرة في فترة ما قبل الميلاد هي أزهى عصور مملكة مروى (كوش)، فقد شيد ملوكها العديد من المباني والمعابد الكبرى على النمط المصري، وهذا في

عهد الملكة "أمنيشختو" والملك "أكينيداد"، وما يثبت الرخاء الكبير الذي عرفته المملكة في هذه الفترة هو ما وقف عليه علماء الآثار، حيث عثر الإيطالي 'فيرليني' عام 1834 على مجوهرات فاخرة تعد اليوم من نفائس متحف برلين ومتحف ميونخ.

وفي الشمال عند الشلال الثاني بنا الملك والملكة معبدا في عمارة، حيث تميزت نقوشه بالطابع المصر، كما قام الملكان بإعادة بناء نباتا التي خربتها حملة "بترونيوس" وبالخصوص معبد الإله آمون.

المحاضرة الثالثة

المظاهر الحضارية لنباتا ومروي:

أ/ النظام السياسي:

يعتبر الاستقرار والاستمرار من أبرز سمات النظام السياسي الذي ساد النوبة (كوش) وشمال السودان في الفترة ما بين القرن الثامن قبل الميلاد والرابع قبل الميلاد، واستمر الاستقرار أيضا حتى القرون الأولى قبل وبعد الميلاد .

طبيعة النظام الملكي:

تتفق جميع الدراسات الحديثة على أن الأسرة الحاكمة كانت ذات أصل محلي خلافا لما كان شائعا أنها من أصل لبيبي فطريقة اختيار الملوك ودور أمهات الملوك والعادات الجنائزية وبعض الممارسات الأخرى كلها تشير إلى حضارة أصلية ونشأة محلية.

وطريقة اختيار الملك الجديد كانت من الملامح الغربية التي تميز بها النظام السياسي المروي، فكان سكان كوش يُصَرِّون على أن اختيار الملك الجديد يجب أن يكون بواسطة هاتف أو وحي رباني يوحى إلى الكهنة، وقد أكد "ديودور الصقلي" ذلك بقوله: "يقوم الكهنة في البداية باختيار خيرة المترشحين، ومن بين هؤلاء يتقبل الناس من يختاره الرب، حيث يطاق به في موكب، ثم يعامل ويخاطب بكل اجلال وكأنه رب لذاته، حيث وكلت إليه أمور المملكة من خلال مشيئة ربانية".

وتدخل الكثير من المراسيم التي تسبق اعتلاء الملك العرش من طقوس وثنية وزيارات لمعابد الآلهة، وضرب آلات الطبل، وغيرها.

ومن جهة أخرى هناك مجموعة من الأبحاث تقول أن طريقة اختيار الملك كانت وراثية حيث يعتلي الحكم واحد من أبناء الملك ولا يشترط أن يكون الأكبر عكس ما كان في العرش الفرعوني، أو الشرق الأدنى، ويأتي الاختيار من قبل قواد الجيش الكبار والموظفين وزعماء العشائر.

وكانت سلطة الملك مطلقة لا يشاركه فيها أحد، فقد كانت تتحتم عليه أن يحكم طبقاً للقانون العرفي، ولا يسمح له بتجاوزه أو انتهاكه، وكان فوق ذلك مقيدا بكثير من المحرمات كطلب الكهنة من الملك أن ينتحر وهي عادة كانت منتشرة عند ملوك كوش إلى غاية مجيء الملك "أرجمنيس" 250-215 قبل الميلاد فقام بإعدام كبار كهنته، وصارت تلك العادة غير موجودة.

وإلى جانب سلطة الملك كانت الإدارة تفتقر إلى إدارة مركزية باستثناء كبير الكهنة الذي يعمل إلى جانب الملك، وقائد الجيش، وبعض الموظفين، وكانت مروى على مر العصور هي إقامة الملك الدائمة، ومع ذلك وجدت بقايا القصور في الأقاليم التابعة لكوش، وهو دليل على وجود حكام إقليميين تحت سلطة الملك.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

يعتمد النشاط الاقتصادي ببلاد كوش على نوع الزراعة المعتادة في وادي النيل حيث السهول الواسعة والأراضي الخصبة، ورغم ذلك كانت النوبة السفلى (مروى) قليلة التساقط مقارنة بالنوبة العليا (نباتا) لذلك كان النشاط الزراعي وحتى استقرار السكان بالمنطقة الشمالية أكبر من الجنوبية، ولم تعمر المنطقة الجنوبية للسكان إلا مع نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد على إثر ادخال نظام الساقية، أما في النوبة العليا فإن السهل الفيضي مثل حوض كرمة وحوض نوري جعل الزراعة ممكنة سواء بواسطة فيضان النيل أو بآلات رفع المياه مما ساعد على نمو مراكز حضارية لها أهمية تاريخية مثل جبل برقل، وكاوا، وبنو، وصولب، وعمارة، وأهم المزارع فيها كانت النخيل والكروم.

في حين تربية الحيوانات اشتملت على عدة أنواع مثل الماشية والضأن والماعز والخيول، أما الجمال فقد دخلت في القرن الأخير فقط من الميلاد.

وإلى جانب الزراعة والحيوانات اعتبرت كوش إحدى المناطق الرئيسية لإنتاج الذهب في العالم القديم، وتقع مناجم الذهب فيها بين النيل والبحر الأحمر، كما تعتبر كوش أكبر مركز لصناعة الحديد في العالم القديم، فقد أنشأت المئات من الأفران الضخمة لصهر معدن الحديد وتجهيزه للتصنيع، وتصديره إلى الخارج إما في شكل سبائك أو في شكل منتجات كاملة الصنع كالأسلحة الحديدية بأنواعها المختلفة بالإضافة إلى المصنوعات الحديدية التقليدية كالقؤوس والمناجل وأسنان المحاريث.

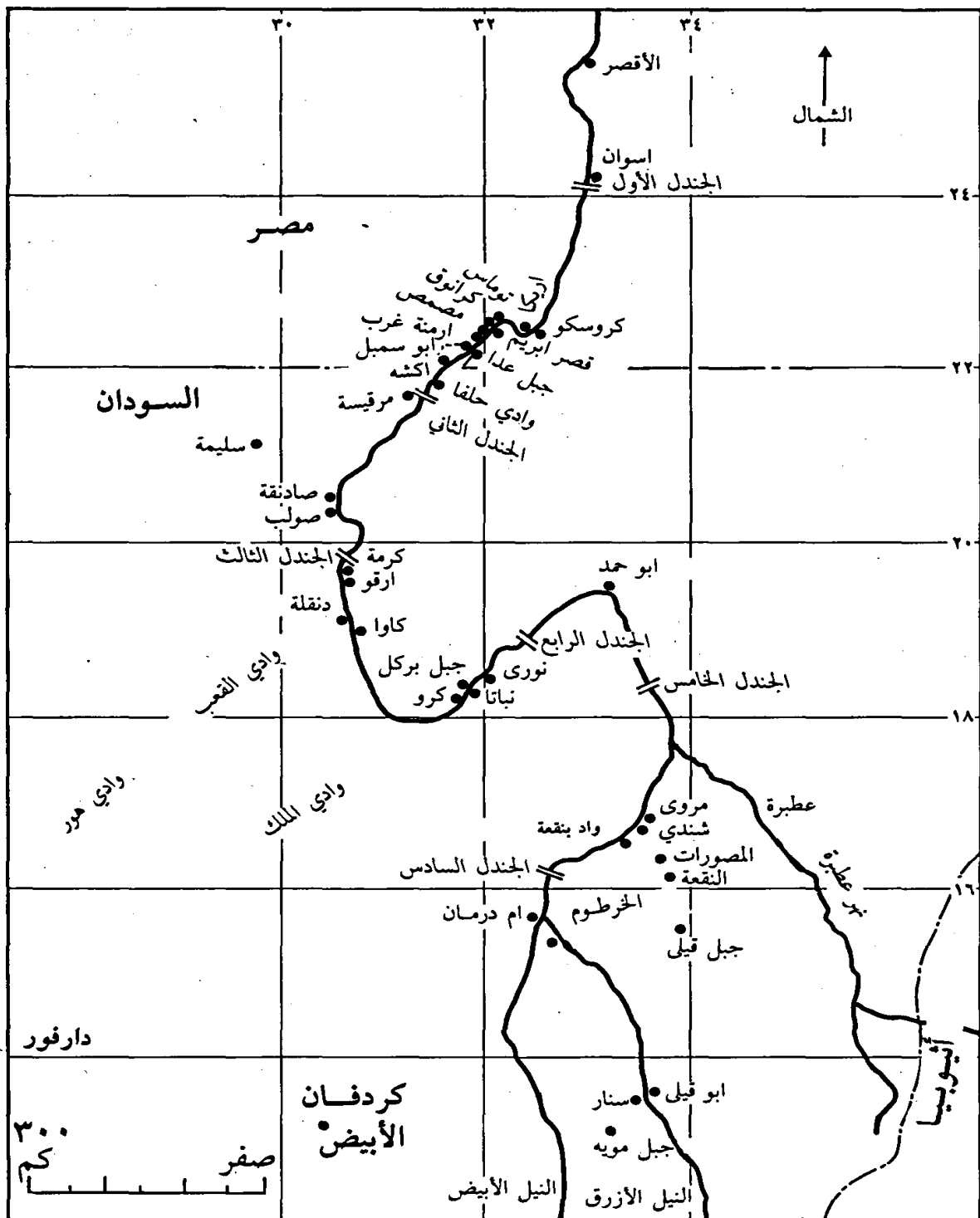
وقد أدى هذا الازدهار الصناعي والانتاجي إلى خلق علاقات تجارية دولية بين مملكة كوش وغيرها من الممالك الأخرى في إفريقيا وآسيا، واحتك الكوشيون بغيرهم من الأمم الأخرى، وتأثروا بالفعل بالعديد من الثقافات والحضارات التي كانت تتميز بها تلك الأمم.

كما ازدهرت في عهدهم أعمال الصياغة للذهب والأحجار الكريمة وأشغال التحف الراقية المصنوعة من الذهب والعاج التي كانت تصدر بدورها إلى دول أخرى خارج إفريقيا حتى وصلت إلى جنوب غرب آسيا، حيث كانت تزين بها قصور أباطرة الفرس؛ بل وصلت حتى إلى الصين مما خلق علاقات تجارية بين مملكة كوش وملوك أسرة هان الصينية التي كانت تحكم بلاد الصين أيامهم.

وبالحديث عن الجانب الاجتماعي لا توفر المعلومات الكافية عنه؛ إلا أنه كانت هناك طبقة عليا أو حاكمة تشمل الملك وأقاربه ورجال البلاط وارشتراطية محلية تشغل المناصب الإدارية والعسكرية، ثم طبقة كهنة المعابد ذات النفوذ القوي، وفي آخر السلم الاجتماعي يوجد الرقيق وأغلبهم من أسرى الحروب، والغالبية العظمى من السكان هم المزارعون والبقارة الذين يربون الماشية.

أما بخصوص الديانة الكوشية فإن المرويين استقوا تعاليمهم الدينية من مصر، فالآلهة التي تعبد في المعابد المروية يطابق أغلبها الآلهة المصرية لذلك أعتبر آمون ربهم الأعلى، ومنه استمدوا حقهم في العرش والملك، وبجانب الآلهة الفرعونية أمثال إزيس وحورس، وتحوت، وأرسينوفيس، فقد عبدت آلهة مروية أخرى مثل الإله الأسد (أبيدماك)، أو (سبوميكر)، حيث يعتبر أبيدماك كبير الآلهة في المملكة، وهو على شكل أسد له ثلاثة رؤوس، وهو ما يدل على تأثر الكوشيون بالفن الهندي.

أما الثقافة العامة فكان تأثر الكوشيون بالثقافة المصرية إلى جانب ثقافة العرب في شبه الجزيرة العربية الذين كانوا على اتصال مستمر ببلاد كوش على مدى آلاف السنين.



مواقع من مروي

